مخافة الله

أليكسي إيليتش أوسيبوف

لننتقل مباشرةً إلى موضوع نقاش اليوم: مسألة "مخافة الله". نعم، هذه من العناصر الشديدة الأهمّيّة في الحياة الروحيّة، حتّى إنّ العديد من الآباء يسمّونها الحالة الأصليّة، والتي من دونها لا يستطيع الإنسان أن يفهم شيئًا في الحياة الروحيّة، ولا أن يحقّق شيئًا فيها.

إنّ تحليل هذا المفهوم مهمٌّ للغاية، لأنّ الكثير من الناس الذين لم يطّلعوا على كتابات الآباء القدّيسين، وهم بعامّةٍ بعيدون عن الأمور الروحيّة، يفهمون مخافة الله على أنّها خوفٌ حرفيّ، أي أنّه علينا أن نخشى الله. كيف يجب أن نخاف؟ حسنًا، مثلما نخاف مثلاً أن يهاجمنا ذئب، أو يقفز علينا نمر، أو يركض خلفنا دبّ؟ هذا هو الخوف ممّا "سيحدث"، وهذه الفكرة هي سوء فهمٍ تامٍّ لما يُدعى في النُّسك مخافة الله. وهذا الفهم الخاطئ متجذّرٌ بعُمقٍ في وعي الناس، وفي نفوسهم، لسببٍ بسيطٍ هو أنّنا لا نفهم الله، وتاليًا، لا نفهم معنى "مخافة الله".

علينا أن نستوعب ما يلي: عندما نتحدّث عن "مخافة الله"، لا نعني على الإطلاق الخوف من الوقوع تحت سيف الله بسبب تلك الأفعال والخطايا التي نعلم أنّنا ارتكبناها وتُثقِلنا. ليس هذا ما نتحدّث عنه! فهذا المفهوم نجدُه في العهد القديم، في الديانة اليهوديّة، وحتّى في الوثنيّة، حيث كان يُفهَمُ الله على أنّه العدل، الديّان الأعلى؛ وهو سيَدينُ كلّ شخصٍ وفقًا لما يستحقُّه - سيكافئ على الفضيلة، ويعاقب على الإثم. أمّا المسيحيّة فقد قامت بقلبِ مفهوم الله لأنّها كشفت ما لم يكن العالم القديم يعرفه. على الرغم من وجود بعض الحالات المتناثرة حيث امتلك بعضُ الأشخاص بصيرة، فقد كانت نادرةً جدًّا مثل الشرارات الصغيرة، كما في مزامير النبيّ داود المذهلة، ولدى بعض الأنبياء الآخرين. فالفهم السائد لله في العالم ما قبل المسيحيّ، كما ذكرنا، كان هكذا تمامًا: الله هو الديّان الأعلى والأعدل على كلّ شخصٍ وعلى العالم بأسره. وقالت المسيحيّة: لا، هذا ليس صحيحًا! ولا يكمن الدليل على ذلك في أمثال المخلّص وتعاليمه (مع أنّها تحمل دليلًا)، بل في الحقيقة المذهلة حيث قال المسيح فجأةً للّصّ المصلوب عن يمينه: "اليوم تكون معي

في الفردوس"... كان هذا اللصُّ حكيمًا. سنرى لماذا كان حكيمًا، مع أنّه كان لصًّا ومجرمًا، وكانت يداه مغمَّستين بالدم، وفجأةً [قيلَ له]: "اليوم تكون في الفردوس!".

إذا سألتُم ممثّلي جميع أديان العالم: "ما المطلوب لدُخول الفردوس حقًّا؟"، فسيقول الجميع: "عليكم أن تحفظوا وصايا الله". وحده المسيح قال: "لا!". ماذا قال؟ هنا كُشِفَت حقيقةٌ مدهشةٌ يجب أن يكون الناس ممتنّين لها إلى درجةٍ أعجَزُ عن تقديرها. الآن وإلى الأبد، أي دائمًا، وإلى دهر الداهرين، الله ليس عدلاً فحسب، بل محبّة أيضًا! فقط بداعي المحبّة يمكن لمجرمٍ أن يكون أوّلَ مَن يدخل الفردوس. لم يكن البطريرك أوّل داخِلي الفردوس، ولا الأساقفة، ولا اللاهوتيّين، أي الكتبة، ولا الفريسيّين، أي الرهبان، بل المجرم! تكشف لنا هذه الحقيقة سرًّا عظيمًا عن النفس البشريّة، وسرّ فهم مَن هو الله، وفهم موضوعنا الحاليّ على وجه الخصوص - مخافة الله.

إذًا، ما هي مخافة الله على ضوء هذا الكشف المذهل؟ هل هي أنّ اللصّ، من خوفه، لم يعرف ماذا يفعل؟ هل رأى في المسيح الذي كان إلى جانبه الإلهَ والمخلّصَ المصلوب، وقال مرتعدًا: "آه، ماذا سيحدث لي الآن؟! ارحمني، لا تعاقبني في الأبديّة"؟ أهذا ما فعله؟ لا، وألف لا! قال شيئًا مختلفًا تمامًا! وتلقّى إجابةً مختلفةً تمامًا. يتّضح أنّ مخافة الله هي الخوف أمام ما يرى الشخصُ نفسَه عليه في مواجهة القداسة؛ يرى قذارته وسفاهته وخطاياه وجرائمه التي لا تُحصى. فقط عندما يرى هذا بوضوح، يدرك نفسَه على حقيقتها. يكون مستعدًّا لأن يذوب من الخجل أمام هذه المحبّة، المحبّة الصافية التي لا توجد فيها ذرّةُ إدانةٍ ضدّه. ها هوذا - المحبّة، وكيف استجبتَ لهذه المحبّة؟ كيف؟! يقول المسيح: "تعالوا إليَّ يا جميع المتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متّى 11: 28). وماذا فعلتُ أنا؟ هل أتيتُ إليه؟ لا! سأطلب منه أن يبتعد عنّي! لستُ بحاجةٍ إليكَ يا ربّ! يبدو أنّ هذا هو ما يواجهه أيُّ شخص حين يشعر ولو بقدرٍ ضئيلٍ من المحبّة الإلهيّة تجاهه.

ليست مخافة الله خوفًا من الرُّعب؛ إنّها خوفٌ من المحبّة! أتذكّر حادثة، رواها الأسقف ألكسندر (سيميونوف تيان شانسكي) على ما يبدو. في أحد الأيّام، عندما كان قد تجاوز سنَّ الطفولة ولكن لم يصبح بعدُ شابًّا، كان يتصفّح كتابًا فوقعَ على صفحةٍ فيها صورةٌ لحصانَين يتزاوجان. كتب قائلًا: "توقّفتُ نوعًا ما

عند تلك الصفحة، وفي تلك اللحظة دخلت والدتي الغرفة. وددتُ لو تبتلعني الأرض، وشعرتُ بالخجل الشديد. لم تقُلْ لي شيئًا، لكن حتّى هذا اليوم، عندما ألمح شيئًا مشابهًا، أقسمتُ ألّا أنظر إليه مطلقًا". أتفهمون؟ كانت والدته وحدها شاهدةً على هذا المشهد لا الله، لا القداسة والنقاوة المطلقتَين لله نفسه. مع ذلك، أقسمَ ألّا يفعل ذلك مجدّدًا.

إليكم تعريفًا جيّدًا جدًّا: مخافة الله هي مخافة المحبّة. أنا لا أخاف لأنّه يعذّبني، بل لئلّا أُسيء أو أُسبّب الأذيّة أو أُحزِن - مَن؟ ذاك الذي يعاملني بمحبّة كاملة.

لو تذكّرنا فقط ما فعلَهُ المسيح، كيف صُلِبَ - طوعًا، لا لأنّه أُمسِكَ وما إلى ذلك... لقد جاء طوعًا وصُلِبَ من أجلنا. حتّى إنّه صلّى في الليلة السابقة! هذا كان السبب الوحيد الذي جاء من أجله - وهو يعلم أيّ عذاباتٍ وأيّة آلامٍ سيتعيّن عليه أن يقاسي! إذًا، أمام هذه المحبّة، كيف سيشعر الإنسان الذي يفعل ما لا ينبغي له فعله على الإطلاق؟

مخافة الله هي مخافة المحبّة؛ هي ليست خوفًا من وحشٍ سيُمزّقني إربًا بسبب ما فعلتُه؛ أو خوفًا أمام جلّادٍ سيُعدمني. من المهمّ جدًّا أن نعرف ذلك ونفهمه. ولكن، ما الذي علينا أن نفهمه أوّلًا وقبل كلّ شيء؟ علينا أن نفهم أنّ الله ليس ديّانًا عادلًا فقط، ديّانًا يكافئ الواحد ويعاقب الآخر. آه، لو كان الأمر كذلك، لما استطعنا أن نعيش أكثر من لحظةٍ واحدة، كما كتبَ الآباء القدّيسون إسحق السريانيّ ويوحنّا الذهبيّ الفم، لأنّنا لا نعيش بطريقةٍ إلهيّةٍ ولو للحظةٍ واحدة، بل نحيا فقط بحسب أهوائنا. لذلك، يجب على كلّ شخصٍ أن يتذكّر حقيقةً عظيمةً واحدةً عندما يخطأ: لا يتوقّف الله أبدًا عن أن يكون محبّة، لأنّه ثابت. نحن المتغيّرون! نحن الذين نحبُّ الآن ونكرَهُ بعد ساعة. لا يتغيّر الله، إنّه دائمًا محبّة؛ ومهما فعلنا، يبقى محبّة. نحن الذين غالبًا ما نُغلِقُ على أنفسنا أمام محبّة الله بستارٍ منيعٍ كما أمام أشعّة الشمس. يعتمد الأمر علينا وحدنا أن نُعيدَ محبّة الله لأنفسنا أو نغلق على أنفسنا دونها.

وماذا تقول المسيحيّة؟ تقول: "هاأنذا واقفٌ على الباب وأقرع. إن سمع أحدٌ صوتي وفتحَ الباب، أدخلُ إليه وأتعشّى معه وهو معي" (رؤيا 20: 3). الله يقرع بمحبّته. وكيف يمكننا فتح هذا الباب؟ بالتوبة طبعًا! إذًا، مهما اقترف الإنسان، يجب أن يفهم أنّ الله لا يعامله أسوأ؛ فقط عليكَ أنتَ أيّها الإنسان أن تتوب. وتذكّر أنّه إذا

تبتَ فسيغفر لك الربّ، وسيرحمكَ ويشفي جرحكَ الرهيب الذي ألحقتَهُ بنفسك. لا تضطرب، لكنّ هذا يتطلّب توبةً وغصبًا للنفس، لأنّ التوبة الحقيقيّة تعني تغيير حياتك – تعني تغييرًا وليس كلامًا بطّالًا مثل "أنا أتوب"؛ وعلى وجه الخصوص، هي ليست سردًا جافًّا للخطايا المرتكَبة، وهو ما تتحوّل إليه اعترافاتنا في كثيرٍ من الأحيان.

إذًا، مخافة الله هي مخافة المحبّة.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Professor Alexei Osipov (2017). "The Fear of God". In *OrthoChristian*. OrthoChristian.